فصل من رواية «خفّة الكائن التي لا تحتمل»(١)

الخفّة والثقل...

تأليف: ميلان كونديرا

ترجمة: د. عفيف دمشقية

— ١ —

فكرة الرجوع الأبديّ فكرةٌ غامضة، وقد أوقع بها نيتشة كثيراً من الفلاسفة في الحَرَج: التفكير في أنه سيأتي يوم يتكرّر فيه كل شيء، كما كنّا قد عشناه، بل إنّه سيتكرّر هذا التكرار كذلك إلى ما لا نهاية! فما الذي تعنيه هذه الخُرافة المجنونة؟.

تؤكّد خُرافة الرجوع الأبديّ، بالنفي، أن الحياة التي تختفي مرّة واحدة وأخيرة، الحياة التي لا تعود قطّ، شبيهة بِطَيْف، وأنّها بلا وزن، وأنها ميِّتة سلفاً، وأنها وإنْ كانت فظيعة أو جميلة أو رائعة فإن تلك الفظاعة وذاك الجمال وهذه الروعة لا تعني شيئاً. إنه لا ينبغي الاعتداد بها أكثر من الاعتداد بحرب بين مملكتين إفريقيتين من القرن الرابع عشر، حرب لم تغيِّر شيئاً من وجه العالم على الرغم من أن ثلاثمئة ألف «أسْوَد» لَقُوا فيها حتفهم وسط آلام تعزّ على الوصف.

فهل يتغيَّر شيء في الحرب بين مملكتين إفريقيتين من القرن الرابع عشر لو أنها تكرّرت مرّات لا يُحصى عددها في عملية الرجوع الأبديّ؟.

أجل: سوف تصبح كتلة تنتصب وتدوم طويلاً، وستكون بَلاهَتُها بلا هوادة.

ولو أنه كان لزاماً أن تتكرّر الثورة الفرنسية إلى الأبد لغدا نتاج المؤرّخين الفرنسيين أقلّ زهواً بـ «روبسبيير». بيد أنه لمّا كان هذا النتاج يتحدّث عن شيء لن يعود فإن السنوات الدامية ليست سوى كلمات ونظريات ومناقشات، وإنها لأخفّ وزناً، من زُغابة، وهي لا تُخيف. وهناك فرق لا نهائي بين «روبسبيير» لم يظهر سوى مرةٍ في التاريخ و«روبسبيير» يعود أبداً لقطع رؤوس الفرنسيين.

فَلْنَقُلْ إذن إن فكرة الرجوع الأبديّ تمثّل منظوراً تبدو لنا الأشياء منه كما نعرفها: تبدو لنا من غير الظرف المخفِّف الخاصّ بزوالها. والحقّ أن هذا **الظرف** المخفِّف يمنعنا من إصدار حُكمٍ ما. فهل بالإمكان الحُكم على ما هو عابر؟ إن سُحُبَ الغروب الملوّنة بلون البرتقال تُنير كل شيء بسِحْر الحنين؛ حتى المِقصلة.

إنّه لم يمضِ وقت طويل على اليوم الذي باغتني فيه شعور لا يُصدَّق: فقد تأثّرت وأنا أتصفّح كتاباً عن «هتلر» أمام بعضٍ من صوره؛ لقد ذكّرتني بأيام صباي؛ فقد عشتها في أثناء الحرب؛ إن كثيراً من أفراد أسرتي قَضَوْا في معسكرات الاعتقال النازية؛ ولكنْ ما يكون موتهم بإزاء هذه الصورة الفوتوغرافية لـ «هتلر» وقد ذكّرتني بزمن انقضى من حياتي، زمن لن يعود أبداً».

إن هذه المصالحة مع «هتلر» تفضح الانحراف الخُلُقي العميق الملازم لعالَم مبنيّ أساساً على عدم وجود الرجوع، لأن كل شيء في هذا العالم مغفور مُقدَّماً، وعليه فإن كلّ شيء **مسموح به بوقاحة** وبذاءة.

— ٢ —

إذا كانت كلّ ثانية من حياتنا ينبغي أن تتكرّر عدداً لانهائياً من المرّات فإننا مسمَّرون بالأَبَد تسمُّر يسوع المسيح بالصليب. هذه الفكرة فظيعة. ففي عالم الرجوع الأبديّ تحمل كل حركة ثِقْل مسؤولية فادِحة. وهذا ما جعل «نيتشه» يقول إن فكرة الرجوع الأبديّ أثقلُ عبءٍ.

وإذا كان الرجوع الأبديّ أثقلَ عبءٍ أمكن أن تبدوَ حَيَواتُنا، على لوحة القعر هذه، بكلّ روعة خِفّتها.

ولكنْ، أيكون الثِّقْلُ فظيعاً حقاً والخِفّةُ جميلة؟.

إنّ أثقل عبءٍ، يسحقنا، يجعلنا نرزح تحته، يُلصقنا بالأرض. غير أن المرأة في شِعر الغزل على مرّ العصور ترغب في تلقّي عبء جسد الذَكَر. وعليه فإن أثقل عبء هو في الوقت نفسه صورة عن أكبر إنجازٍ حيويّ. وبقدر ما يكون العبء أفدح تكون حياتنا أقرب إلى الأرض وأكثر واقعيةً وصِدقاً.

وبالمقابل فإن غياب العبء غياباً تامّاً يجعل الكائن البشري أخفّ من الهواء، يجعله يطير، يجعله يبتعد عن الأرض، عن الكائن الأرضي، يجعله واقعياً بنصفه فقط ويجعل حركاته حرّةً بقدر ما هي خاليةٌ من كلّ معنى.

(١) تصدر هذا الشهر عن «دار الآداب» ببيروت.

فما الذي يختاره إذن؟ الثِقْل أم الخِفّة؟.

ذلكم هو السؤال الذي طرحه «پارمنيد» في القرن الرابع قبل الميلاد. ففي رأيه أن الكون مقسّم إلى أزواج من المتضادّات: النور ـ الظُلمة؛ الصفيق ـ الرقيق؛ الحَرُّ ـ البَرْد؛ الكائن ـ اللاكائن. وكان يرى أن أحد قُطْبَي التضادّ موجب (المنير، الحارّ، الرقيق. الكائن) والآخر سالب. وقد تبدو لنا هذه القسمة إلى موجب وسالب تافهة البساطة. إلا في حالة واحدة: أيّهما الموجب، الثِقْل أم الخِفّة؟.

كان «پارمنيد» يجيب: الخفيف موجب والثقيل سالب. فهل كان على حقّ أم لا؟ تلك هي المسألة. شيء واحد مؤكّد. إن التضادَّ (ثقيل ـ خفيف) أكثرُ التضادّات غموضاً ولَبْساً.

ـ ٣ ـ

منذ سنوات طويلة وأنا أفكّر في «توماس». بيد أني رأيته بوضوح للمرّة الأولى على هَدْي هذه التأمُّلات. رأيته واقفاً في نافذة من نوافذ شقّته وعيناه محدِّقتان من جانب الفِناء الآخر في جدار المبنى المقابل، ولم يكن يدري ما ينبغي عليه عمله.

كان قد تعرّف قبل حوالي ثلاثة أسابيع بـ «تيريزا» في مدينة صغيرة من مدن بوهيميا. وقضيا معاً ساعة على وجه التقريب. فقد صحبته إلى المحطّة وانتظرت إلى جانبه حتى اللحظة التي صعد فيها إلى القطار. وبعد عشرة أيام جاءت لرؤيته في پراغ. وتضاجعا في اليوم نفسه. وفي الليل انتابتها حُمّى وأمضت عنده أسبوعاً كاملاً تعاني من نَزْلة.

لقد شعر حينئذٍ بحبّ لا يدري كنهه لهذه الفتاة التي كانت شبه مجهولة منه. وخُيِّل إليه أنها طفل أُودِع سلّة مَطْلِيَّة **بالقَطِران** وقد تُركت فوق مياه نهر لكي يلتقطها على حافّة سريره.

ظلّت عنده أسبوعاً ثم عادت وقد أبلّت إلى المدينة التي تقطنها على بُعْد مئتي كيلومتر من پراغ. وهاهنا تقوم اللحظة التي تحدَّثت عنها، وفي هذا المكان أرى مِفتاح حياة «توماس»: إنه واقف في النافذة وعيناه تحدِّقان من جانب الفِناء الآخر في جدار المبنى المقابل، وهو يفكّر:

هل ينبغي أن يعرِض عليها المجيء للإقامة في پراغ؟ إن هذه المسؤولية لَتُخيفه. فلو دعاها إلى بيته الآن لجاءت تنضمّ إليه لتمنحه حياتها برمّتها.

أم ينبغي العدول عن ذلك؟ ستظلّ «تيريزا» في هذه الحال ساقية في محل لتقديم البيرة داخل جُحر من جحور الريف، ولن يراها أبداً.

أيريد أن تنضمّ إليه؟ بلى أم لا؟.

إنه ينظر إلى الفِناء وعيناه محدّقتان في الجدار المقابل، وهو يبحث عن جواب.

هوذا يعود، دائماً وأبداً، إلى صورة هذه المرأة المستلقية فوق أريكته؛ وما كانت لتذكّره بأيّ شخص مرّ في حياته السابقة. فلم تكن خليلة ولا حليلة. كانت طفلاً أخرجه من سلّة مَطْلِيّة بالقَطِران وألقاه على حافّة سريره. وكانت قد أغفت. وجثا بالقرب منها. وكانت أنفاسها المحمومة تتسارع، وقد سمع أنيناً خافتاً. وألصق وجهه بوجهها وهمس لها في نومها بكلمات مُطَمْئِنة. وما هي إلا برهة حتى خُيِّل إليه أن تنفُّسها بات أهدأ، وأن وجهها أخذ يرتفع بصورة آليّة نحو وجهه. وأحسّ على شفتيها برائحة الحمّى الحرِّيفة بعض الشيء، واستنشقها وكأنّه يريد التضمُّخ بحميميّة جسدها. وعندها تخيّل أنها كانت عنده منذ سنوات طويلة وأنها في النَزْع الأخير. وفجأة بدا له من المؤكّد أنه لن يعيش بعدها. ولسوف يتمدّد إلى جانبها ليموت معها. وإذ حرّكته هذه الرؤية فقد دسّ وجهه لصق وجهها في الوسادة وظلّ طويلاً على هذا النحو.

إنه الآن واقف في النافذة يستحضر تلك اللحظة. وإذا لم يكن حبّاً ذاك الذي عرّف بنفسه بغتة على ذلك النحو، فما عساه يكون؟.

ولكن، أكان ذلك هو الحبّ؟ لقد لاحظ أنه كان يرغب في الموت إلى جانبها، وكان ذلك الشعور طاغياً بصورة جليّة: كان يراها للمرّة الثانية في حياته! ألم يكن ذلك بالحري ردَّ فعل هستيري من رجل أخذ، وقد أدرك في دخيلة نفسه عدم أهليّته للحبّ، يمثّل لنفسه مهزلة الحبّ؟ وفي الوقت عينه كان وعيه الجزئيّ من الخسّة بحيث اختار لمهزلته هذه الساقية الريفية البائسة التي لم تكن تتمتّع عملياً بأيّ نصيب لِوُلُوج حياته!.

كان ينظر إلى جدران الفِناء القذرة ويدرك أنه لا يعلم ما إذا كان الأمر خَبالاً أو حُبّاً.

ولام نفسه ـ في هذا الموقف الذي كان من الممكن أن يتصرّف فيه رجلٌ حقٌّ على الفور ـ على تردّده وحرمانه ـ على هذا النحو ـ أجملَ لحظات عمره (إنه على ركبتيه أمام فراش المرض الذي ترقد فيه المرأة الشابّة، وهو مقتنع بعجزه عن البقاء حيًّا بعدها) من كلّ معنى.

كان يُثقل على نفسه باللوم، غير أنه خلص إلى القول في سرّه بأنه كان طبيعياً في الواقع ألّا يعرف ما يريد:

لا يستطيع الإنسان قطُّ معرفة ما ينبغي عليه أن يريده لأنه لا يملك سوى حياة واحدة، ولا يمكنه مقارنتها قطُّ بحَيَوات سابقة، ولا تصحيحها وتعديلها في حَيَوات لاحقة.

هل الأفضل أن يكون مع «تيريزا» أم الأفضل أن يبقى وحيداً؟. ليس من وسيلة للتحقُّق من صلاح أيّ من القرارين نظراً

لانعدام أيّ وجه من وجوه المقارنة. فكلّ شيء عِيشَ للتوّ للمرّة الأولى ومن غير تحضير. كما لو أن مُمَثِّلاً دخل المسرح من غير أن يكون قد راجع دوره على الإطلاق. ولكن ما قيمة الحياة إذا كان أول تكرارٍ للحياة هو الحياة عينها؟ إن هذا هو ما يجعل الحياة شبيهة دائماً بمخطَّط إجمالي. غير أنه حتى عبارة «مخطَّط إجمالي» ليست صحيحة، لأن المخطَّط الإجمالي هو دائماً فاتحة لشيء، تحضير لِلَوحَة، في حين أن المخطَّط الإجمالي الذي هو حياتنا مخطَّطٌ إجماليٌ لِلاشيء، تحضيرٌ من غير لوحة.

وردّد «توماس» بينه وبين نفسه القول الألماني المأثور: إن مرّة واحدة لا تُحْسَبُ، إن مرَّة واحدة هي (لم يحصُل قطّ). وعجزُنا عن أن لا نحيا غيرَ حياةٍ واحدةٍ شبيهٌ بعدم حياتنا على الإطلاق.

— ٤ —

غير أنه ذات يوم، وكان يستريح بين عمليّتين، أخبرته ممرّضة أنه مطلوب للردّ على التلفون. وسمع صوت «تيريزا» عبر السمّاعة. كانت تطلبه من المحطّة. وابتهج. كان لسوء الحظّ مشغولاً هذا المساء فلم يَدْعُها إلى منزله إلا لليوم التالي. وما إن وضع السمّاعة حتى لام نفسه على عدم دعوتها للحضور على الفور. فقد كان أمامه بعدُ متّسع من الوقت لإلغاء موعده! وتساءل عمّا ستفعله «تيريزا» في براغ خلال الساعات الست والثلاثين الطويلة الباقية على لقائهما، وساورته رغبة في استقلال سيارته والذهاب للبحث عنها في شوارع المدينة.

وصلت في مساء اليوم التالي. وكانت تحمل حقيبة تتدلّى من كتفها بحزام من الجلد، وقد ألفاها آنق ممّا كانت عليه في المرّة الأخيرة. وكان في يدها كتاب ضخم؛ «أنّا كارينينا» لتولستوي. وكانت تتصرّف تصرّفات مرِحة، بل صاخبة بعض الشيء، وتجهد في أن تُظْهِر له أنها إنما مرّت بمحض الصدفة، وبسبب مناسبة خاصّة: كانت في براغ لدواعٍ مهنيّة، وربما (كانت أقوالها مبهمة جدّاً) للبحث عن وظيفة جديدة.

بعد ذلك وجدا أنفسهما ممدَّدين جنباً إلى جنب عاريَيْن منهوكيْن فوق الأريكة. وكان الليل قد خيّم. وسألها أين تقيم، وكان يريد إيصالها بالسيارة. وأجابت بنبرة تشي بالحَرَج بأنها ستبحث عن فندق، وأنها أودعت حقيبة متاعها في أمانات المحطّة.

في اليوم السابق فقط كان يخشى أن تحضر إليه مانحة إيّاه حياتها برمّتها لو أنه دعاها للإقامة في بيته في براغ. وها هو ذا الآن يقول لنفسه، وهو يسمعها تخبره بأن حقيبة متاعها مودَعة في الأمانات، إنها قد وضعت حياتها في تلك الحقيبة وأودعتها في المحطّة قبل أن تمنحه إيّاها.

صعد معها إلى السيارة المتوقّفة أمام المبنى، وذهب إلى المحطّة فتسلّم الحقيبة (كانت ضخمة وثقيلة جدّاً) وأخذها إلى منزله بصحبة «تيريزا».

كيف حدث أن قرّر بهذه السرعة في حين كان قد تردّد خلال خمسة عشر يوماً ولم يُرسل إليها حتى بطاقة بريدية؟.

دهش هو نفسه للأمر، فقد كان يتصرّف بعكس مبادئه. فمنذ عشر سنوات، أي عندما طلّق زوجته الأولى، كان قد عاش طلاقه في جوّ من البهجة شبيه بالجوّ الذي يحتفل فيه الآخرون بزواجهم. وقد أدرك يومذاك أنه لم يُخلَق للعيش بقرب امرأة، أيّاً كانت، وأنه لم يكن في مقدوره أن يكون حقاً هو إيّاه إلا عَزَباً. وعليه فقد جهد في ترتيب نظام حياته بدقّة، فلم تستطع أية امرأة أن تحضر للإقامة في منزله وهي تحمل حقيبة متاع. ولم يكن يملك كذلك غير أريكة واحدة. **وعلى الرغم من أنّ اتّساع الأريكة كان كافياً فإنه كان يؤكّد** لصُوَيْحباته أنه لا يستطيع النوم بجانب شخص آخر على فراش مشترك، وكان يقودهنّ جميعاً إلى منازلهن بعد منتصف الليل. ومن جهة أخرى فإنه عندما بقيت «تيريزا» في بيته في المرّة الأولى مصابة بنزلة، لم ينم إلى جانبها. بل أمضى الليلة الأولى فوق مقعد وثير، وذهب في الليالي التالية إلى المستشفى حيث عيادته مجهّزة بكرسي طويل يستخدمه في أثناء خدمته بالليل.

ومع ذلك فقد نام في هذه المرّة بقربها. وعندما استيقظ في الصباح لاحظ أن «تيريزا» التي كانت لا تزال نائمة، كانت تمسك بيده. أفيكون كلّ منهما قد أمسك بيد الآخر على هذا النحو طوال الليل؟ بدا له ذلك صعب التصديق.

كانت تتنفّس عميقاً في أثناء نومها، وكانت تمسك بيده (بحزمٍ، فلم يكن يتمكّن من الإفلات من ضمّتها) وكانت حقيبة المتاع الثقيلة جدّاً قابعة إلى جانب السرير.

لم يجرؤ على تخليص يده من قبضتها خوفاً من إيقاظها، واستدار بحذر شديد على جنبه ليتمكّن من مراقبتها بشكل أفضل.

ومرّة جديدة قال لنفسه إن «تيريزا» كانت طفلاً وُضع في سلّة مَطْلِيَّة **بالقَطِران** وتُركت تنساب مع مجرى الماء. يا للجسارة في ترك سلّةٍ تضمّ طفلاً تنجرف فوق مياه نهرٍ حانقة! ولو أن ابنة فرعون لم تنتشل من الماء سلّة موسى الصغير لما كان «العهد القديم»، ولا كانت حضارتنا بأسرها! إن في مبتدأ كثير من الأساطير القديمة شخصاً يُنقِذ طفلاً تُرك لمصيره. ولو لم ينتشل «پوليب» «أوديبَ» الصغير لما كتب «سوفوكليس» أجمل مأساةٍ!.

لم يكن «توماس» يومذاك يعلم أن الاستعارات من الأمور الخطِرة. فليس لأحد أن يتلهّى بالاستعارات. ومن الممكن أن يُولد الحبّ من استعارة واحدة.

— ٥ —

عاش سنتين تقريباً مع زوجته الأولى ورُزق ابناً. وقد عهد القاضي بالطفل في حُكم الطلاق إلى الأم، وحَكَم على «توماس» بأن يدفع لها ثلث راتبه. وضمِن له في الوقت نفسه إمكان رؤية ولده مرّتين في الشهر.

غير أن الأم كانت تؤجّل الموعد في كل مرّة كان عليه أن يذهب فيها لرؤيته. ولو أنه كان قد نفحها بهدايا فخمة لتمكّن بالتأكيد من تذليل صعوبة مشاهدته. ولقد فهم أنّ عليه أنْ يدفع للأم ثمن حبّه لابنه، وأن يدفعه سلفاً. وكان يتخيّل نفسه راغباً فيما بعدُ في أن يغرس أفكاره في ذهن ابنه، وهي أفكار مناقضة في كل شيء لأفكار الأمّ. وكان مجرَّد التفكير في ذلك يُجهده. وقرّر ذات يوم من أيام الأحد، وقد منعته الأم في الدقيقة الأخيرة من الخروج مع ابنه، ألا يراه على الإطلاق ما دام حيّاً.

وبعدُ فلماذا عليه التعلُّق بهذا الطفل لا بغيره؟ إنه لم يكن يربطه به شيء غير ليلة لم يلتزم فيها جانب الحذر. ولسوف يحرص كل الحرص على دفع المال، ولكنْ لا يطالبنّه أحد، باسم عواطف أبوية لا يُدرى كنهها، بأن يقاتل من أجل حقوقه بوصفه أباً!.

بديهي أنه ما من أحد كان مستعدّاً لقبول مثل هذا التفكير. فحتى أَبَوَا «توماس» لاَمَاه وأعلنا أنه إذا رفض العناية بابنه فسينقطعان هما ـ أي أَبَوَا «توماس» ـ أيضاً عن العناية بابنهما. وهكذا ظلاّ يُقيمان مع كَنَّتهما علاقة ودّية تدعو إلى التفاخر، متباهيينْ أمام بِطانتهما بسلوكهما المثالي وبحسّهما بالنَصَفَة.

وعليه فقد نجح في وقت قصير في التخلّص من زوجة وابن وأمّ وأب. ولم يبق له من إرث من كلّ ذلك سوى الخوف من النساء. فقد كان يشتهيهنّ ولكنّه كان يخشاهنّ. وكان ينبغي إيجاد تسوية بين الخشية والاشتهاء؛ فكان ما دعاه «الصداقة الشهوانية». وكان يؤكّد لخليلاته أن علاقة خالية من العواطف لا يدّعي فيها أيّ من الشريكين حقوقاً في حياة الآخر وحريته هي وحدها الكفيلة بجلب السعادة لهما كليهما.

ولكي يتيقّن من أن الصداقة الشهوانية لا تخضع أبداً لعدوانيّة الحب فإنه لم يكن يرى كل واحدة من خليلاته الدائمات إلا في آمادٍ متباعدة جدّاً. وكان يرى هذه الطريقة خالصة الكمال، ويمتدحها أمام أصدقائه قائلاً: «ينبغي التقيُّد بالقاعدة الثلاثية. ففي وسع المرء أن يرى المرأة نفسها في آمادٍ متقاربة جدّاً، غير أنه لن يراها عندئذٍ أكثر من ثلاث مرّات. كما في وسعه معاشرتها سنواتٍ طويلة، على أن يترك ثلاثة أسابيع على الأقل تنقضي بين لقاء وآخر».

ولقد أتاح هذا النظام لـ «توماس» إمكان الاحتفاظ بخليلاته الدائمات والحصول في الوقت نفسه على عدد كبير من الخليلات العابرات. بيد أن أمره لم يكن مفهوماً على الدوام. وكانت «سابينا» خير مَنْ يفهمه من بين جميع صديقاته. كانت رسّامة، وكانت تقول له: «أحبّك جدّاً لأنّك نقيض الكيتش[1]. فلو أنك دخلت مملكة الكيتش لكنت مسخاً مريعاً. إذ ما من سيناريو فيلم أميركي أو روسي يمكن أن تكون فيه شيئاً آخر غيرَ حالة مُنَفِّرة».

وعليه فقد كانت «سابينا» هي التي طلب منها مساعدته في إيجاد عمل لـ «تيريزا» في پراغ. وكما تقضي قواعدُ الصداقةِ الشهوانيةِ غيرُ المكتوبة فقد وعدته ببذل ما تستطيع، ولم تلبث بالفعل أن اكتشفت وظيفة في مختبر للصور الفوتوغرافية في مجلة أسبوعية. ولم تكن هذه الوظيفة تتطلّب مزيّة خاصة، بيد أنها رفعت «تيريزا» من وضع الساقية إلى وضع موظّفة صحفية. وقامت «سابينا» بنفسها بتقديمها إلى هيئة التحرير، وعندها قال «توماس» في نفسه إنه لم يسبق له قط أن حظي بأحسن من هذه الصديقة.

— ٦ —

كان العُرف غير المكتوب في الصداقة الشهوانية يستتبع أن يُسْتَبْعَدَ الحبّ من حياة «توماس». ولو أنه خرق هذا الشرط لوجدت خليلاته الأخريات أنفسهنّ سريعاً في وضع أدنى، وَلَثُرْنَ.

وعليه فقد وجد لـ «تيريزا» استوديو استأجره من مستأجِره وكان عليها أن تحمل إليه حقيبة متاعها الثقيلة. وكان يرغب في السهر عليها وحمايتها والتمتّع بحضورها، بيد أنه لم يكن يشعر بأية حاجة إلى تغيير طريقة عيشه. ولم يكن يريد كذلك أن يعلم أحد بأنها تنام في بيته. فالنوم المشترك هو جسم الجريمة في الحب.

لم يكن قطّ لينام في سرير واحد مع النساء الأخريات. وعندما كان يذهب لزيارتهن في منازلهن كان الأمر سهلاً، إذ كان في مكنته العودة حين يشاء. وكان الأمر أكثر حَرَجاً عندما يزرنه في بيته ويكون عليه أن يشرح لهن أنه سوف يصحبهنّ إلى منازلهنّ بعد منتصف الليل لأنه يعاني من الأرق ولا يستطيع النوم بقرب أحد. ولم يكن هذا بعيداً عن الحقيقة، بيد أن السبب الرئيسي كان أسوأ، ولم يكن يجسر على البوح به لصُويحباته: كان يشعر في اللحظة التي تلي المضاجعة برغبة لا تُقاوم في البقاء وحيداً. فقد كان يكره أن يستيقظ ليلاً فيجد نفسه بجانب كائن غريب؛ وإنه لينفر من نهوض الزوجين في الصباح؛ فلم يكن يرغب في أن يسمعه أحد وهو ينظّف أسنانه في الحمّام، ولا كانت حميمية الفطور يشترك في تناوله شخصان لِتُغْرِيَه.

ولذلك فإنه دهش تلك الدهشة عندما استيقظ وكانت «تيريزا» تقبض بقوّة على يده! وأخذ ينظر إليها. ووجد مشقّة في إدراك ما حدث. واستحضر الساعات التي كانت قد مرّت فخُيِّل إليه أنه يستنشق فيها عطر سعادة مجهولة.

---

(١) «الكيتش» كلمة ألمانية يُقصد بها أعمال فنّية أو أدبية رديئة الذوق قد تصل فيها المبالغة إلى حدّ الفُكاهة أو الغرابة. (المترجم).

ومذّاك كانا كلاهما يبتهجان سلفاً بالنوم **المشترك**. ويكاد يغريني القول إن الغاية من المضاجعة لم تكن عندهما الغُلمة بل النوم الذي يُعقبها. ولم تكن هي على الأخص تستطيع النوم من غير أن يكون معها. وإذا حدث أن بقيت وحدها في الاستديو (الذي لم يكن فوق ذلك سوى ذريعة) لم تستطع إغماض عينيها طوال الليل. وبين ذراعيه، حتى في ذروة الهياج، كانت تنعس على الدوام. وكان يحكي لها حكاياتٍ يخترعها لأجلها، توافهَ، كلماتٍ مُطَمْئِنةً أو غريبةً يردِّدها في نبرة رتيبة. وكانت هذه الكلمات تتحوَّل في رأس «تيريزا» إلى رؤى مختلفة تقودها إلى الحلم الأوَّل. وكان يملك سُلطان النوم عليها، وكانت تغفو في اللحظة التي يكون قد اختارها.

وعندما كانا ينامان كانت تمسك به كما في الليلة الأولى: تهصر بشدّة معصمه أو إحدى أصابعه أو عَقِبه. وكان عليه عندما يرغب في الابتعاد عنها دون أن يوقظها أن يُعمل **الحيلة**. فكان يخلِّص إصبعه (معصمه، عَقِبه) من هصرتها، الأمر الذي كان يوقظها دائماً نصف إيقاظة، إذ كانت ترقبه بيقظة حتى في أثناء النوم. ولكي يهدّىء من روعها فقد كان يُزلق في يدها، بدلاً من معصمه، شيئاً ما (بيجاما مكوَّرة، خُفّاً بيتياً، كتاباً) فتضمّه بقوّة كما لو كان جزءاً من جسده.

وذات يوم، وكان قد أنامها ودخلت الدهليز المؤدِّي إلى بداية السُبات وتستطيع فيه بعدُ الردّ على أسئلته، قال لها: «حسناً! أنا ذاهب الآن». وسألت: «إلى أين؟» فقال بصوت صارم: «أنا خارج». وانتصبت فوق السرير وقالت: «أذهب معك!» قال: «كلا، لا أريد. أنا ذاهب إلى غير رجعة»، وخرج من الغرفة إلى المدخل. ونهضت وتبعته إلى المدخل وهي تطرف بعينيها. لم تكن تلبس غير قميص قصير كانت تحته عارية تماماً. وكان وجهها جامداً، بلا ملامح، بيد أن حركاتها كانت نشطة. وخرج من المدخل إلى الردهة (الردهة المشتركة للمبنى المخصَّص للإجارة) وأغلق الباب في وجهها. وفتحته بفظاظة وتبعته وقد أدركت أنه يريد الذهاب إلى الأبد وأن عليها التشبّث به. ونزل طبقة وتوقَّف في سفرة السلّم وانتظرها ولحقت به إليها وأمسكت بيده وأعادته إلى قربها في السرير.

كان «توماس» يقول لنفسه: مضاجعة امرأة والنوم إلى جانبها، تلكما شهوتان ليستا متباينتين وحسب، بل متناقضتان. فالحبّ لا يتجلّى في الرغبة في المضاجعة (تنطبق هذه الرغبة على جمهور لا يُحصى عدده من النساء) بل في الرغبة في النوم المشترك (لا تخصّ هذه الرغبة إلا امرأة واحدة).

ـ ٧ ـ

أخذت تنشج وسط الليل في نومها. وأيقظها «توماس»، بيد أنها قالت بحقد وهي تلمح وجهه: «ارحل! ارحل!» ثم قصَّت عليه حلمها: كانا كلاهما في مكانٍ ما مع «سابينا» في حجرة فسيحة. وكان في وسطها سرير، كما لو كان خشبة مسرح. وأمرها «توماس» بالبقاء في زاوية وضاجع «سابينا» أمامها. وكانت تنظر، وقد سبَّب لها هذا المشهد ألماً لا يُطاق. ولكي تخنق ألم النفس بألم الجسد فقد شرعت بغرز الإبر تحت أظافرها. قالت وهي تضمّ قبضتيها وكأنّ يديها كانتا قد جُرِحتا حقاً: «لقد أَلِمْتُ ألماً فظيعاً!».

وضمَّها بذراعيه، ورويداً رويداً (لم تكن تتوقَّف عن الارتجاف) نامت بفعل ضمَّته.

وفي اليوم التالي تذكَّر، وهو يفكِّر في ذلك الحلم، شيئاً. وفتح مكتبه وأخرج رزمة من رسائل «سابينا». وبعد برهة وجد هذا المقطع: «أرغب في مضاجعتك في مُحْتَرَفي كما لو كنا فوق خشبة مسرح. لسوف يكون حوالينا أشخاص لكنَّهم لن يملكوا حقّ الاقتراب. بيد أنهم لن يستطيعوا الإشاحة بعيونهم عنّا...».

وأسوأ ما في الأمر أن الرسالة كانت مؤرَّخة. كانت رسالة حديثة العهد، وكانت قد كُتِبَت بعد مرور وقت طويل على سُكنى «تيريزا» منزل «توماس».

وهاج: «لقد نقَّبْتِ في رسائلي!».

وقالت من غير أن تسعى إلى الإنكار: «حسناً! اطردني!».

غير أنه لم يطردها. كان يراها هناك تغرز إبراً تحت أظافرها وقد استندت إلى جدار مُحْتَرف «سابينا». وتناول أصابعها بيديه فداعبها وحملها إلى شفتيه وقبَّلها وكأنَّ عليها آثار دم.

إلا أن كل شيء بدا منذ تلك اللحظة وكأنَّه يتآمر عليه. فلم يكن يمرّ في الواقع يوم من غير أن تعلم شيئاً جديداً عن مغامراته المتستّرة.

وكان في البداية يُنكر كل شيء. ويحاول أن يُثبت عندما تكون الأدلّة صارخة جداً، أنه ما من تناقض بين حياته التي يجمع فيها عدداً من النساء وبين حبِّه لـ «تيريزا». لم يكن منسجماً مع **نفسه**: كان يُنكر خياناته تارةً ويُسوّغها أخرى.

وذات يوم تلفن لصديقةٍ لضرب موعد. وعندما انتهت المخابرة سمع صوتاً غريباً في الغرفة المجاورة، شيئاً كأنه اصطكاك أسنان.

واندفع نحوها كما لو كان يريد إنقاذها من الغرق. وسقطت قارورة الڤاليريان وأحدثت بقعة كبيرة فوق السجّادة. وتخبَّطت وأرادت التملُّص منه فأمسك بها ربع ساعة كما يُمْسَك بمجنون في القميص المخصَّص لذلك، إلى أن هدأ روعها.

كان يعلم أنه في وضع لا سبيل إلى تسويغه لأنه **مؤسَّس** على عدم مساواة كاملة.

كانا قد ذهبا معاً، قبل أن تكتشف المراسلة بينه وبين «سابينا»

بزمن طويل، إلى أحد الملاهي بصحبة بعض الأصدقاء. وكانوا يحتفلون بمناسبة حصول «تيريزا» على الوظيفة الجديدة. فقد تركت مختبر الصور الفوتوغرافية وغدت مصوِّرة في المجلّة. وإذ لم يكن يحبّ الرقص فقد اهتمَّ بأمر «تيريزا» أحد زملائه في المستشفى. كانا ينسابان بشكلٍ رائع فوق الحلبة، وكانت «تيريزا» تبدو أجمل منها في أي يوم. وقد شُدِه لمرأى الدقّة والوداعة اللتين كانت تتجاوز بهما «تيريزا» بجزء من كَسْر الثانية إرادة مُراقصها. وبدا أن تلك الرقصة كانت تُعلن أن تفانيها ورغبتها الجائحة في أن تفعل ما كانت تقرأه في عَيْنَيْ «توماس» لم يكونا مرتبطين بالضرورة بشخص «توماس» بالذات، وإنما كانا على أهبة الاستجابة لنداء أيّ رجل تكون قد التقته. ولم يكن أسهل من تصوُّر «تيريزا» وهذا الزميل الشابّ عشيقين. وكانت هذه السهولة التي في وسعه تصوّرهما بها على هذا النحو هي التي تحرجه! لقد كان جسد «تيريزا» قابلاً لأن يُفكَّر فيه على أكمل وجه في عناق المضاجعة مع جسد أيّ ذَكَر، وقد عكّرت هذه الفكرة مزاجه. وعندما رجعا متأخّرين ليلاً اعترف لها بأنه يشعر بالغَيْرة.

كانت هذه الغَيْرة العبثيّة المتولّدة من إمكانٍ نظريّ بحت دليلاً على أنه كان يتمسَّك بإخلاصها شرطاً لا بدَّ منه. ولكن كيف يمكنه عندئذٍ مؤاخذاتها على غَيْرتها من خليلاته اللائي لا ريب بالفعل في وجودهنّ؟.

ـ ٨ ـ

كانت تجهد في النهار (ولكن من غير أن تتمكّن بالفعل) في تصديق ما كان «توماس» يقوله، وفي أن تكون مرحةً كما كانت دائماً حتى الآن. بيدَ أن غَيْرتها المكبوحة نهاراً كانت تتجلّى أشدّ عنفاً في أحلامها التي كانت تنتهي دائماً بنشيج لم يكن يستطيع وقفه إلا بإيقاظها.

كانت أحلامها تتكرَّر وكأنها موضوعات قابلة للتنوّع أو حلقات مسلسل تلفزيوني. فمن الأحلام التي كانت تعاود كثيراً مثلاً حلم القِطط التي كانت تنقضّ عليها وتغرز مخالبها في جلدها. والحقّ أنه من اليسير تفسير هذا الحلم: القطّة في اللغة التشيكية تعبير عامي يعني فتاةً جميلة. وكانت «تيريزا» تشعر بأنها مهدَّدة من النساء، كل النساء. فكل النساء كنَّ خليلاتٍ محتملاتٍ لـ «توماس»، وقد كانت هي تخاف ذلك.

وفي دورة أخرى من الأحلام كانت تُسْلَم إلى الموت. وذات ليلة، وكان قد أيقظها وهي تزعق من الرعب، قصَّت عليه هذا الحلم: «كانت بركة سباحة كبيرة مسقوفة. وكنّا حوالي عشرين ولم يكن فينا غير النساء. وكنا جميعاً عاريات تماماً، وكان علينا أن نسير حوالي البركة. وكانت هناك سلّة كبيرة معلّقة إلى السقف وداخلها شخص يعتمر قبّعة عريضة الأطراف تخفي وجهه، غير أني كنت أعلم أنه أنت. وكنتَ تُصدر إلينا أوامر. وكنتَ تصرخ. كان علينا أن نغنّي ونحن نسير في الاستعراض وأن نثني الرُّكب. وعندما كانت امرأة تغفل عن الثني كنت تطلق عليها النار من مسدَّس فتقع ميتة في البركة. وفي تلك اللحظة كانت جميع النساء يقهقهن ثم يندفعن بالغناء بأعلى مما كنَّ يفعلن قبلاً. ولم تكن عيناك تفارقاننا لحظة، وإذا قامت إحدانا بحركة خاطئة كنت تقتلها. وامتلأت البركة بالجثث الطافية على سطح الماء. وكنت أنا أعلم أني لا أملك القوّة للقيام عمَّا قليل بثني ركبتيّ، وأنك سوف تقتلني!».

وكانت دورة الأحلام الثالثة تتحدَّث عمَّا كان قد حصل لها إذ ماتت.

كانت مسجَّاة في عربة موتى كبيرة وكأنها شاحنة لنقل أثاث المنازل. ولم يكن حولها إلا جثث نساء. وكانت تلك الجثث من الكثرة بحيث وجب ترك الباب الخلفي مفتوحاً وتدلَّت منه بعض السيقان.

وكانت «تيريزا» تصرخ: «ولكن! لستُ ميتة! إني أملك جميع مشاعري!».

وكانت الجثث تضحك ساخرة وتقول: «نحن أيضاً نملك جميع مشاعرنا».

كان ضَحِكُ الجثث بالضبط ضَحِكَ النساء الحيَّات اللائي كنَّ يقلن لها في الماضي إن أسنانها ستتلف، ويضعف مبيضاها، ويتغضَّن وجهها، وأن ذلك طبيعيّ جداً لأن أسنانهنَّ هنَّ أيضاً قد تلفت، ومبيضاتهنَّ قد ضعفت، ووجوههنَّ قد تغضَّنت. وبالضحكة نفسها كنَّ يشرحْنَ لها الآن أنها ميتة، وأن كل شيء يسير سيراً منتظماً.

وفجأة شعرت بالحاجة إلى التبوّل. وصاحت: «ولكنْ، ما دمتُ أشعر بالحاجة إلى التبوّل! فهذا دليل على أني لست ميتة!».

وقهقهن من جديد وقُلْنَ: «طبيعيّ أن تشعري بالحاجة إلى التبوّل! فسوف تلازمك جميع هذه الأحاسيس طويلاً. إن الأمر يشبه ما يحدث للناس الذين تُبْتَر إحدى أيديهم. إنهم يظلُّون يحسُّون بها طويلاً بعد البتر. ونحن الأخريات ليس فينا بول، ومع ذلك نشعر على الدوام بالرغبة في أن نبول».

كانت «تيريزا» ملتصقة بشدّة بـ «توماس» في السرير وهي تقول: «كنَّ جميعاً يحدّثنني بلا كلفة وكأنهنَّ يعرفنني منذ الأزل، أو كأنهنَّ رفيقاتي، وكنت أنا خائفة من الاضطرار إلى البقاء معهنَّ إلى الأبد!».

ـ ٩ ـ

جميع اللغات المنبثقة من اللاتينية تصوغ كلمة «Compassion» (تعاطُف) من السابقة «Com» والجذر «Passion» الذي يعني في الأصل «الألم». وفي لغات أخرى، في التشيكية مثلاً أو البولونية أو

الألمانية أو الأسوجية، تُتَرْجَم هذه الكلمة بمصدر مسبوق بسابقة مماثلة ومتبوع بكلمة «شعور» (في التشيكية: Sou-Cit؛ وفي البولونية Wspol-Czucie؛ وفي الألمانية: Mit-gefühl؛ وفي الأسوجية: Med-Känsla.)

وفي اللغات المشتقَّة من اللاتينية تعني كلمة «تعاطُف» أن المرء لا يمكن أن ينظر ببرودة قلب إلى ألَم الشخص الآخر؛ بعبارة أخرى: يستلطف المرءُ مَنْ يعاني ألَماً. بل توحي كلمة أخرى لها تقريباً المعنى نفسه، pitié (شفقة) (هي بالانكليزية pity، وفي الإيطالية pietà إلخ...) بنوع من الرحمة تجاه الكائن المتألِّم. ولأن يشعر المرء بالرحمة تجاه امرأة فذاك معناه أنه أوفر منها حظاً، أنه ينحني ويتنازل إليها.

ولذا توحي كلمة التعاطف بشكل عام بالارتياب؛ إنها تعني شعوراً من الدرجة الثانية، شعوراً ليس له كبير علاقة بالحبّ، ولأن يحبّ المرء شخصاً بدافع التعاطف فليس معنى ذلك أنه يحبّه حقاً.

وفي اللغات التي لا تصوغ كلمة التعاطف من الجذر Passio (الألَم) وإنما من المصدر «الشعور» تُسْتَخْدَم الكلمة بالمعنى نفسه تقريباً، غير أنه يصعب القول ما إذا كانت تعني شعوراً رديئاً أو شعوراً هزيلاً. والقوّة الخفيّة في أصل وضعها تُضفي عليها نوراً آخر وتكسبها معنى أشمل: فشعور المرء بالتعاطف (Compassion) Co-Sentiment «شعور مشترك») معناه قدرته على مشاطرة الشخص الآخر شقاءه، بل مشاطرته أي شعور آخر: الفرح، الضيق، السعادة، الألَم. وهكذا فإن هذا التعاطف (بمعنى Soucit وWspolezucie و **Mitgefûhl** وMedkănsla) يعني أرفع درجات القدرة على التخيّل العاطفي، وفنّ الانفعالات بالإيحاء. وهذا أسمى شعور في تراتبية المشاعر.

حين كانت «تيريزا» تحلم بأنها تغرز إبراً تحت أظافرها كانت تفضح نفسها كاشفة بذلك لـ «توماس» عن تنقيبها سرّاً في أدراجه. ولو أن امرأة أخرى فعلت به هذا لاستنكف عن محادثتها إلى الأبد. وإذ كانت «تيريزا» تعرف ذلك فقد قالت له: «اطردني!» وغنيّ عن البيان أنه لم يكتفِ بعدم طردها، بل تناول يدها وقبّل بَنَانَها لأنه كان يشعر هو نفسه تلك اللحظة بالألَم الذي كانت تشعر به تحت أظافرها وكأنّ أعصاب أصابع «تيريزا» قد وُصِلت مباشرة بدماغه هو.

ومن لا يملك موهبة التعاطف (الشعور المشترك) الشيطانية لا يسعه إلا الحكم ببرودة على سلوك «تيريزا» نظراً لأن حياة الشخص الآخر الخاصة مقدّسة ولا يُقْدِم أحد على فتح الأدراج التي يرتّب فيها الرسائل الشخصية التي يتلقاها. غير أنه لمّا كان التعاطُف قد غدا قَدَرَ «توماس» (أو لَعْنَته) فقد خُيِّل إليه أنه هو الذي كان قد جثا يومئذٍ أمام درج مكتبه المفتوح ولم يستطع أن يشيح بنظره عن العبارات التي خطّتها يد «سابينا». ولقد تفهّم ما فعلته «تيريزا»، ورأى أنه لم يكن عاجزاً وحسب عن لومها، بل لقد ازداد بذلك حبّاً لها.

— ١٠ —

ازداد مع الزمن ما كان يصدر عنها من حركات فظّة وغير منسجمة. فقد مرّ عامان على اكتشافها خياناته وسار كل شيء من سيّىء إلى أسوأ. ولم يكن هناك من مخرج.

كيف! أما كان قادراً على الفراغ من صداقاته الشهوانية؟ كلّا. ولَمزَّقه ذلك لو فعل. فلم يكن يملك القوّة للسيطرة على شهوته للنساء الأخريات. ثم إنّ الأمر كان يبدو له عديمَ النفع. وليس هناك مَنْ يعرف خيراً منه أن مغامراته لم تكن لِتُعرِّض «تيريزا» لأي خطر. فلماذا يحرم نفسه منها؟ لقد بدا له هذا الاحتمال غيرَ معقولٍ بقدر ما هو غيرُ معقولٍ استنكافُه عن الذهاب إلى مباريات كرة القدم.

لكنْ أما زال في الوسع الحديث عن اللّذة؟ فما إن كان يذهب للقاء إحدى خليلاته حتى يشعر بالنفور منها ويُقْسِم أنه يراها لآخر مرة. فقد كانت صورة «تيريزا» أمام ناظريه، وسرعان ما كان ينبغي أن يَثْمَلَ كيلا يفكّر فيها. فمُذْ عرفها وهو عاجز عن مضاجعة نساء غيرها من غير أن يستعين بالكحول! غير أن نَفَسَهُ الفائح برائحة الكحول كان بالضبط الأمارةَ التي تزيد اكتشاف «تيريزا» خياناتِه يُسراً.

لقد أطبق الفخّ عليه: فما إن يذهبُ للقائهنّ حتى تفارقه الرغبة، بيد أنه ما إن يُمضي يوماً من غيرهنّ حتى يؤلّف رقم تلفون لضرب موعد.

وكان أكثر ما يشعر بالراحة عند «سابينا»، لأنه كان يعلم أنها متكتّمة وأنه لا خوف عليه من افتضاح أمره. وفي المُحْتَرَف كان يطفو ما يشبه ذكرى من ذكريات حياته الماضية، حياة العَزَب المثالية.

ربما لم يكن يدرك هو نفسه إلى أيّ حدٍّ قد تغيرّ: كان يخشى الرجوع متأخراً ليلاً إلى منزله لأن «تيريزا» كانت تنتظره. وذات يوم لاحظت «سابينا» أنه كان ينظر إلى ساعته في أثناء الجماع وأنه كان يجهد في تسريع خاتمته.

أخذت بعد ذلك تجوس عارية بخطى وئيدة خلال المُحْتَرَف، ثم وقفت أمام لوحة غير مكتملة موضوعة فوق مُسنَد التصوير الخشبي وشرعت تختلس النظر باتّجاه «توماس» الذي كان يرتدي ملابسه على عجل.

وسرعان ما لبس ثيابه، بيد أن إحدى قدميه كانت عارية. ونظر حواليه ثم قام على يديه ورجليه باحثاً عن شيء تحت المنضدة.

قالت: «عندما أنظر إليك يخامرني شعور بأنك في حال اختلاط بموضوع لوحاتي الخالد. لقاء عالَمَيْن. عرض مزدوج. فَخَلْفَ طَيْف «توماس» الإباحي يشفّ الوجه الذي لا يُصدَّق للعاشق

الرومنطيقي. أو العكس بالحري: من خلال طَيْف «تريستان» الذي لا يفكّر في غير «تيريزا» هُـ يُلْمَـحُ العـالَمُ الجميـل الـذي خـانـه الإباحيّ».

كـان «توماس» قد اعتـدل وأخذ يصغي بـأُذُن لاهيـة إلى كلمات «سابينا».

وسألت: «عمّ تبحث؟»

- عن جورب.

وتفحّصت معه الغرفة، ثم قام من جديد على يديه ورجليه وأخذ يبحث تحت المنضدة.

قالت «سابينا»: «ما من جورب هنا. لم تكن حتماً تلبسه حين جئت».

صاح «توماس» وهو يرنو إلى ساعته: «كيف، مـا كنت ألبسه! لم آتِ بالتأكيد بجورب واحد!».

- ليس الأمر مُسْتَبْعَداً. فأنت مبلبل الخـاطر منـذ بعض الوقت. على عجلة من أمرك عـلى الدوام، وتنـظر في ساعتـك، وعليه فليس عجيباً أن تنسى لبس أحد جوربيك.

كـان قد عـزم على انتعـال حذائـه بقدمـه العاريـة عندمـا قـالت «سـابينا»: «الـطقس بارد في الخـارج. سوف أُقْـرِضك جـوربـاً من جواربي!».

ومدَّت إليه يدها بجورب مشبَّك من القـطن الأبيض من أحدث طراز.

كان يعلم حقّ العلم أن ذلك كان انتقامـاً. فلقد أخفت جـوربه لمعاقبته على نظره إلى ساعته في أثناء المضاجعة. ولم يكن أمامـه بإزاء البرد القارس إلّا الخضوع. وعاد إلى بيته بجورب رجـالي في إحدى ساقيه، وجورب نسائي أبيض ملفوف حول العَقِب في الأخرى.

لم يكن لوضعه من مَخْرَج: كان في نظر خليلاتـه موسـوماً بـالمَيْسِم المُخزي لحبّه لِـ «تيريزا»، وفي نظر «تيريزا» بالمَيْسِم المُخزي لمغامراته مع خليلاته.

— ١١ —

ولكي يلطِّف من عذابه تـزوّجها (تمكّنـا أخيراً من فسـخ الإجارة من المستأجر، فمنـذ أمد طـويل لم تعـد تقيم في الاستديـو) وزوّدها بجرو كلب.

كـانت الأمّ كلبـةً من فصيلة (سـان - بـرنـار) يملكهـا زميـل لِـ «توماس». والأبُ كلبَ أحـد الجيران من فصيلة (شيـان - لو). ولم يكن أحد يرغب في اقتناء نُغولٍ صغيرة، وكانت فكرة قتلها تحزّ في نفس الزميل.

كـان على «تـوماس» أن يختـار من الجراء، وكـان يعلم أن الجراء التي لن يختـارها مـآلها إلى المـوت. وسلك مسلك رئيس للجمهوريـة عندما يكون أمامه أربعة أشخاص محكوم عليهم بـالإعدام ولا يملك العفو إلا لواحد. واختار في نهاية الأمر جـرواً من الجراء، أنثى بـدا أن جسمهـا جسم (شيان - لـو) بينما يُـذكِّـر رأسهـا بـأمّهـا التي من فصيلة (سان - برنار). وحملها إلى «تيريزا». فتنـاولتها وضمّتهـا إلى صدرها فلم تلبث أن بالت على بلوزتها.

بعد ذلك جاء دور اختيار اسم لها. وقد أراد «تـوماس» أن يُعْلَم من الاسم وحده أن الجرو يخصّ «تيريزا» فتذكّر الكتاب الذي كانت تتأبّطه يوم حضرت إلى براغ من غير إخطار. واقـترح أن يطلق عـلى الجرو اسم «تولستوي».

وردّت «تيريزا» قائلة:

- ليس في وسعنـا أن نسميـه «تـولستـوي» مـا دام أنثى. يمكننـا تسميته «أنّا كارينينا».

قال «توماس»:

- لا نستطيع تسميتها «أنّا كارينينا»، فما من امرأة قطُّ لهـا سحنة تثير الضحك بقدر ما تثـير هذه السحنـة. ليكن اسمها «كـارينينا». أجل، «كارينينا». هذه بالضبط الصورة التي طالما تخيّلتها لها.

- ألن تكون تسميتها «كارينينا» سبباً في إرباك حياتها الجنسية؟.

قال «توماس»:

- من الممكن أن يكون لكلبة يدعوها سيداهـا دائماً بـاسم لكلب ميول سحاقية.

وأغرب ما في الأمر أن نبوءة «توماس» تحقّقت. ففي العادة تتعلّق الكلبات بسيّدهنّ أكثر ممّا يتعلّقن بسيّدتهن، غير أن العكس كـان في «كارينينا». فقد عزمت عـلى التدلّـه بـ «تيريـزا». وعرف «تـوماس» بجميلهـا فكـان يـداعب رأسهـا ويقـول لهـا: «أنت عـلى حقّ يـا «كارينينا»، هـذا بالضبط مـا كنت أتوقّـع منك. فـإذ كنتُ لا أتمكن من ذلك وحدي فلا بدّ من معاونتي».

ولكنْ حتى بمساعدة «كارينينا» لم يتوصّل إلى جعلها سعيدة. وقـد فهم ذلك بعد حوالي عشرة أيام من احتلال الدبابات الروسية بلده. كـان ذلك في آب (أغسطس) من عام ١٩٦٨، وكـان مدير أحـد المشـافي في زوريخ - وقـد تعرّف إليـه «تومـاس» خـلال مؤتمر طبيّ دولي - يتلفن له كل يومٍ من هناك. كان خائفاً على «توماس»، وهـا هوذا يعرِض عليه منصباً.